في بلاد العرب :

من دمشق إلى «دير الزور»!

« تحية إلى إخواني هناك وتلاميذي »

للأســتاذ علي الطنطاوي

إلى دير الزور ...

استعدوا يا سادة ، فقد أزف الرحيل ، وشدت الأحداج ، فودعوا الأحبة والصحاب إن كنتم تطيقون الوداع ، وخذوا طريقكم إلى (المرجة) ففيها الموعد الفجر ، وأسرعوا لا يشغلكم جمال الغداة ، ولا سحر السَحَر ، وإن ملأ السماء والأرض والنفس خشعة وفرحة وبهاء ، فحرام على ذي الأعمال ، أن يفتنه عنها الجمال ...

ها نحن أولاء في (المرجة) ، وها هو ذا صوت المؤذن يمشي في الفضاء مشي البرء في الأجسام ، والطرب في الأعصاب ، فيكون لهذه الدنيا نوراً وطهراً وعطراً . وها نحن أولاء نصلّي الصبح في (جامع يلبُغا) الذي سرق نصفه العثمانيون فجعلوه مدرسة ، كأن الأرض قد ضاقت بالمدرسة حتى ما يتسع لها إلا الجامع ، ولكن اللصوص لم يكونوا حذاقاً ، ولم يستطيعوا طمس الآثار ، فنسوا (المئذنة) لم يسرقوها فلبثت قائمة تشهد عليهم ، كشهادة (منارة سوق الغزل) على أهل بغداد ، أنهم سرقوا (المسجد الجامع) الذي كان قطب الأرض ، وأكلوه ، وادعوه أنهم ما رأوه ..

وها نحن أولاء نخرج فنرى السيارة وعليها الأحمال ، ولكن ما لها لا تمشي ؟ ألم يأن الأوان ؟ ألم يؤكدوا لنا أن الرحلة الفجر ؟ لقد مضت نصف ساعة ، ومضت ساعة ، وملأت الشمس الدنيا ، وأمتع الضحى ، وهي واقفة ، ترقب أحد البكوات حتى يصحو وتفرّك الجارية رجليه ويغتسل ويأكل ويلبس ويجيء مبتخترا .. فلماذا منعونا نحن المنام ، وألزمونا الحضور في الغلس ، في برد كانون ، وقرّ الليل ؟ وما هذه الخصومات والمعارك ، وهذه الألفاظ الوسخة التي يقذف بها السائقُ ومعاونوه في وجوه الركاب ، لأنهم طالبوا بحقهم وأبوا الظلم ؟ وما لشركة (نِرْن) الإنكليزية تسير سياراتها كما تسير عقارب الساعة ، لا يسبق عقرب ولا يتأخر ولا يقفه شيء ؟ أَكُتب علينا أن نظل أبداً أهل خلف في المواعيد ، وكذب في الأحاديث ، وفوضى في المعيشة ، لا نحن اتبعنا ديننا ، دين الصدق والنظام ، ولا نحن قلدنا الأوربيين في فضائلهم ؟ ما قلدناهم إلا في الرذائل والموبقات !

* * *

لقد دنا المسير ، و (رغت)(١) السيارات ، فاستنجدوا بقرائحكم لتسعفكم بالقول المحلّى واللفظ المعسول ، واعتصروا العيون واستمطروها الدمع ، فما يحلو بغير الدموع الوداع ، وما وصفه شاعر إلا (زعم ...) أنه بكى ، فكأن الشعراء ... إذا أزمعوا وداعاً وضعوا البصل في عيونهم ... وإلا فكيف تجود بالدمع عند كل طلب كأنها (حنفيّات) الحمام ، أو كأنها مُقل الحسان ؟

وخذوا مقاعدكم قبل أن يشتد الزحام . ولكن من أين ندخل وهذه السلال والصرر والحقائب بين الأرجل ووسْط الممرات ؟ وما هذا الضيق في المقاعد ؟ هل هي رحلة دقائق من دمشق إلى دُمّر ، أو من مصر إلى المعادي ؟ إنها رحلة يوم كامل بليله وأكثر نهاره أنمضيه محبوسين في هذا الصندوق ، مقيدين بالأصفاد ، لا نستطيع أن نحرك يداً ، ولا نمد ساقاً ، ولا نتلفت ؟ أنقاوم الشركات الأجنبية ونحاربها بمثل هذه السيارات ؟

يا قوم إنكم بمثل هذا تجعلون الناس يترضون عن الأجانب ، ويلعنون لأجلكم كل شيء وطني !

* * *

لقد جرت السيارة وباسم الله مجراها ومرساها ، ها هي ذي تخترق شارع فؤاد الأول ، وتقطع شارع بغداد أفخم شوارع دمشق وأطولها ، الذي فتح من ربع قرن ولم يبن فيه إلا خمس بنايات ، لأن البلدية أرادت عمران دمشق ، فوضعت للبناء فيه شروطاً لا يمكن معها البناء ، إلا إذا قامت حرب عالمية ثالثة ، وصار كل الشاميين لصوصاً أي (أغنياء حرب) ...

لقد بلغنا (جسر تورا) فودعوا دمشق بنظرة أودعوها حبة

(١) الرغاء للإبل .

القلب ، وقرارة اللب ، فما تلقون إذا فارقتم دمشق مثل دمشق ، وأين ؟ أين مثل فتونها وسحرها ؟ وأين مثل تقاها وطهرها ؟ أين قبة تنطح النجم كقبتها ؟ أين في الأرض غوطة كغوطتها ؟ أين نهر يسيل شمراً وذهباً كبرداها ؟ أين مثل ربوتها وشاذرانها ومزتها وميزانها ؟ أين في الدنيا ربيع كربيعها ، وزهر كزهرها ، وثمر كثمرها ، وكروم ككرومها ؟

تزودوا منها بالنظرات تكن لكم في طريقكم زاداً وفي غربتكم أنساً ...

***

هذه (دوما) قصبة الغوطة فيها خمسة وعشرون ألف ساكن قلّ فيهم من يتفرغ للعناية بدار لذلك ترون دورهم زريّة منخفضة السقوف ، ضيقة الأبواب ، وقل فيهم من يعتني بثوب أو يحرص على علم ، ما لهم هم إلا الزراعة فهم أقدر خلق الله عليها ، وأصبرهم على مكارهها ، لأنهم يشتغلون لأنفسهم وذراريهم ، لا لـ (بك) من البكوات ، ولا لحواجة من الحواجات ، وقل فيهم من لا يملك قطعة من الأرض ولو صغرت ، يعيش بها ولها ويموت عنها ، ليس فيهم أسرة يستعبدها الملاك هذا الاستعباد (الحرّ) ... ويظلمها هذا الظلم (القانوني) ... فينظر إليها كما ينظر إلى حميره وأبقاره ، ويعاملها معاملتها ، فيسكنها في مثل زرائبها ، ويطعمها قريباً من طعامها ، ولا يراها أعلى قدراً منها ، يشغلها السنة كلها تكد وتشقى ، لتقدم له ثمن سكرة من سكراته ، أو ليلة (حراء!) من ليلاته ، تريق عرق جباهها على أقدام عشيقاته ، وتبذل حياتها ابتغاء مرضاته ، ثم لا تنجو من غضباته ونزواته !

إنها أرضهم هم ، وهم أصحابها ، ولذلك ازدهرت وأينعت حتى صارت أجمل أرض في الوجود ، فانظروا إليها من حولكم ، إلى هذا البحر يموج بالأشجار ، تتمايل أغصانها ، وتتعانق أفنانها ، تتوجها إذا جاء الربيع ألوان الزهر ، فتكون ابتسامة الزمان على فم الثرى ، وتثقلها إذا حل الصيف أنواع الثمار ، من المشمش عشرين نوعاً ، حبّه كالتفاح استدارة وبهاء لا كمشمش مصر الذي يشبه في صغره حبّ الخردل ، ومن التفاح أربعين نوعاً ، والكمثرى عشرين ، والعنب خمسين نوعاً معدودة عداً ، والدراق والخوخ والجانرك والسفرجل والجوز واللوز والتين والزيتون أنواع شتى وأشكال ، وإلى السواقي تسعى فيها تحمل الحياة من بردى إلى هذه الأرض المباركة ، يميد على حوافيها الحور ويرقص الصفصاف ، وتنساب عروق البطيخ والشمام والقثاء والخيار ، وتضحك من حولها حقول القمح ، ومزارع (الخضار ...) . هذه هي الغوطة : بستان واحد ، مساحته أكثر من ثلاثمائة مليون متر مربع ، متصل الظلال ، متلاقي الأغصان ، كل شبر منه ثروة وجمال ، وكنز لا ينفد على الإنفاق .

لقد جازت (السيارة) دوما ، فانظروا إليها فقد كادت تختفي مناراتها ، كما اختفت دمشق إلا جبليها الخالدين ، قريني الدهر حليفي الخلود : قبة النسر من الأموي ، وهامة الصخر من قاسيون.

وهذي كروم دوما ، يضل البصر في رجاها[1] ويقصر عن مداها ، فيها (العنب الدوماني) الذي سارت بذكره الركبان ، فمن لم يأكل منه لم يأكل عنباً إلا على المجاز ...

ولكنكم مررتم بالغوطة وكرومها في الشتاء ، فدهشتم وما رأيتم إلا حطبها ، فكيف لو جزتم بها الربيع فشاهدتم البعض من زهرها ، أو سلكتموها في الصيف فجنيتم الشهي من ثمرها ؟ إذن لقلتم : لا رب إلا الله ، ولا بستان إلا الغوطة !

***

لم يبق الآن أمامكم إلا الصحراء ، ولكن هذه الصحراء كانت يوماً من الأيام سهولا ممرعة ، وكان أكثرها منازل عامرة وكانت تفيض بالخيرات وتزخر بالظلال ، أيام الملوك الغرّ الديشمين سادة الدنيا ، بني أمية ، الذين حملوا راية الإسلام إلى أقصى المشرق وإلى أقصى المغرب ، من أطراف الصين إلى أواسط فرنسا ، فنصبوها على قبة الفلك ، ودعموها بالعدل والنبل والفضل ، فما كانوا فاتحين كالفاتحين ، يغلبون بالقوة ، ويملكون بالسطوة ، فان زالوا زالت آثارهم ، ولكن كانوا مجاهدين ، وكانوا بانين ، وكانوا عبقريين ، فجعلوا هذه البلاد كلها إسلامية عربية إلى يوم القيامة . وكان لهم الفضل على مسلم ، في هاتيك الأقطار حتى تقوم الساعة ، ورحمهم الله وغفر لهؤلاء المؤرخين الذين حاولوا أن يتقربوا إلى أعدائهم بإطفاء هذه الشمس التي بهرت العيون ، فجمعوا غبار الطرق وجعلوا

(١) الرجاء : واحد الأرجاء .

ينفخونه عليها حتى تمزقت صدورهم ، والشمس ساطعة لم تنطفىء ، ومن ذا يطفىء نور الشمس فى رأد الضحى ؟

رحمهم الله ، فقد جعلوا هذه المدينة لما نزلوها سيدة المدائن ، ورفعوا قدرها حتى ذلت لها نهاوند ودانت قرطبة وخضعت سمرقند وطأطأت لها القسطنطينية ، فأضعنا نحن من بعدهم عزها . إن الأرض تعمر أبداً وبلادنا تمشي إلى الخراب ، إنكم ستمرون الليلة على المدينة التي قارعت روما يوم كانت روما عاصمة الأرض ، ونازعتها مجدها وسلطانها ، فلا ترون فى مكانها إلا قرية اسمها (تدمر) ، أفرأيتم كيف تمشي إلى الوراء ؟ إن ديار الشام التي يسكنها اليوم بساحلها وداخلها ، وشمالها وجنوبها ، خمسة ملايين كان فيها يوماً من الأيام خمسة وعشرون مليوناً . وكان فى العراق مدينتان متجاورتان ، فى كل منهما مليونان ، وأهل العراق كله اليوم خمسة ملايين . وإن بين هاتين المدينتين اليوم على الطريق جسراً قائماً فى الفلاة ، كان تحته نهر اسمه دجيل ملأ الشعراء بذكره الأسماع ، يسقي مدينة اسمها حربى زخرت بأخبارها صحف التاريخ ، فمحيت المدينة وجف النهر ولم يبق إلا جسر قائم فى الفلاة . وكان فى البصرة عشرة آلاف قناة ، فلم يبق فيها اليوم إلا مائة وثمانون قناة .

نعم لقد عدنا إلى الوراء ولكن عهد التأخر قد انقضى . لقد وقفت القافلة تجمع شتاتها ، وتعد عدتها ، لتمشي فى طريق المجد كما مشى الأجداد ...

لقد عرفتنا المصائب فى فلسطين والغرب ومصر والشام ، أن الطريق من هنا : إلى الشرق ... من الشرق يطلع فجر الخلاص ، أما الغرب فلا يجيء منه إلا ليل الظلم وسواد الاستعمار ...

هذه حقيقة تدرس فى المدارس الأولية ، ولكن فى الناس جهلاء لم يتعلموها بعد !

* * *

يا إخواننا . إن هذه السفرة ستعلمكم الصبر . إنكم ستتحدثون حتى تملوا الحديث ، وتسكتون حتى تكرهوا السكوت ، وتأكلون حتى تعافوا الأكل ، وتجوعون حتى تشتهوا الطعام ، وتنامون حتى تشبعوا من النام ، وتستيقظون حتى تتمنوا الهجوع ، وأنتم محبوسون فى هذا الصندوق ، مصفدون بالأغلال ، فأين هذا من رحلات الأجداد على الإبل ، يستمتعون بالحرية والانطلاق والتأمل ؟ تقولون أنكم اختصرتم الزمان ... وما ذا فى اختصار الزمان ، إلا الإسراع إلى القبر ؟

إنكم تشكون والسيارة تمشي لكم على الطريق الآهلة ، وأنتم قعود تأكلون وتشربون ، ففكروا فى بطل الدنيا سيف الله (خالد) وصحبه : كيف قطعوا هذه البادية على الإبل لا يمشون على طريق ولا يجدون ماء ولا زاداً كافياً ، والعدو محيط بهم ، فلما وصلوا إلى الشام لم يغتسلوا ويمدوا أرجلهم ... ولكنهم نازلوا جنود سيد الكتائب قيصر ، وانتزعوا منه الظفر ، وأخذوا منه البلاد ، فبقيت خالصة لأمة محمد ، لن تفدوا لغيرهم أبداً ، لا للانكليز ولو غلبوا عليها حيناً ، ولا لليهود ، ولا للاميركان ... أولئك هم الرجال حقاً !

* * *

وبعد فهذى هى الدير ، تبدو منارتها من وراء البادية ، كما تبدو الميناء من وراء البحر ، فحث المطى يا أيها السائق ، واسقها (البنزين) ، فقد مل السفر ، ونفد الصبر ، واشتد الشوق ...

وأعظم ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الخيام من الخيام

هذى هى الدير قد وضحت ، أفلا تحسون أنكم مقبلون على مدينة عراقية ، أليس لمناراتها رشاقة مآذن بغداد ، وإن لم يكن لها ثوبها المزركش الذى تخطر فيه ، وتاجها الذهبي الذى تميس تحته أليس فراتها هو الفرات الذى يجرى فى العراق وإن لم تزن كتفيه الروابى المخضرة ، ولم يستنقع فيه النخيل ، ولم تمرح على صفحته الزوارق الشعرية ، ولم يؤكل فى القهوات المطلة عليه السمك المسقوف ؟

هذى هى الدير ، فدعونى يا رفاق أفارقكم لأحدث القراء (حديث الدير) ... فان فيهم من لم يسمع من قبل باسمها !

على الطنطاوى

أطلب من دار الرسالة

للأستاذ أحمد حسن الزيات

١ — فى أصـــول الأدب

٢ — دفاع عن البـــلاغة